الفصل الأول

"فصل تمهيدى"

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد :

انفتح العالم الإسلامى فأصبح دنيا فسيحة الأرجاء ، حتى أصبح يمتد نحو ١٤٠درجة طولية ، ابتداء من خط طول ١٢٠ شرق خط جرينتس ، الواقع شرقى إندونيسيا ، حتى خط طول ١٨غرب خط جرينتش حيث مصب نهر السنغال فى المحيط الأطلسى ، وهو يعد أقصى امتداد العالم الإسلامى فى الاتجاه الغربى ، كما يمتد هذا العالم بين نحو ٧٠ درجة عرضية : بداية من أعالى نهر الفولجا عند درجة عرض ٦٠ شمال خط الاستواء حتى درجة عرض ٦ جنوب خط الاستواء حيث جزيرة زنجبار على الساحل الإفريقى على المحيط الهندى .

وتلك مساحة هائلة ، أكبر مثلاً من مساحة كل القارة الإفريقية ، بل وأكبر من قارتى أوروبا وأمريكا الجنوبية مجتمعتين ، فهى تبلغ نحو اثنى عشر مليوناً من الأميال المربعة ، ولعلها تصل إلى نحو أربعة عشر مليوناً إذا أضفنا إليها المساحة التى تشغلها الأقليات المسلمة فى الدول غير المسلمة.

ومع هذا الاتساع الهائل كان من الضرورى أن ينمو الفكر الجغرافى ويزدهر ، فبدأ الفكر الجغرافى الإسلامى كعلم متلازماً مع التاريخ ، إذ كانا فى نظر العرب فرعان متلازمان من شجرة المعارف العامة التى كانت تسمى "الأدب" بصورة عامة ، فكما كان من الضرورة للعربى أن يعرف لغته ، نثرها ونظمها وشعرها وكتابها ، فكذلك كان لابد له أن يعرف أنساب العرب وأخبارهم وسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأخبار الفتوحات وتواريخ الخلفاء والدول ، وكان لزاماً عليه أن يعرف بلاد الإسلام ومدائنها والطرق إليها مع ما تيسر من أحوال أهلها وصفاتهم وعاداتهم . ومن هنا كان من الصعب أن تفصل فى كثير من

الأحيان بين الجغرافى والمؤرخ والأديب فى عالم الفكر الإسلامى ، فلو تناولنا كتاباً أدبياً صرفاً كالبيان والتبيين للجاحظ مثلاً . ودرسناه دراسة دقيقة لاستخرجنا منه من المعلومات التاريخية الصرفة والملاحظات الجغرافية الخالصة ، الأمر الذى يضع الأديب أبا عثمان عمرو بن بحر فى صفوف الجغرافيين والمؤرخين [٢] .

بعد ذلك أخذت الجغرافيا والفكر الجغرافى طريق الازدهار والمنهجة والتأليف ، فقد اتسعت الدولة الإسلامية وتنوعت بيئاتها وأعراقها وزادت الحاجة لمعرفة الكثير عن هذا العالم الشاسع ، عندئذ صدر التأليف فى الجغرافية عند المسلمين عن نزوع نحو المعرفة وتعدد الثقافات والثروات والدروب والمسالك والممالك الذى امتازت به أمم الإسلام فى عصر النهوض ، إذ انه مظهر من مظاهر الشعور بالعزة الذى يصاحب الأمم الصاعدة وازدهار العلم والمعرفة .

وفى ذلك يقول المقدسى فى مقدمة كتابه الشهير "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم" : ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم ، فصنفوا على الابتداء ، ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه ، وانفرد بعض لم يذكروه إلا على الإحلال ، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المغاور والبحار والبحيرات والأنهار .... وعلمت أنه باب لابد منه للمسافرين والتجار ولا غنى عنه

---

[2] – ٣– للاستزادة أنظر : ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، القاهرة ، طبعة الساسى ، الجزء الأول ، ص ٢ وما يليها .

للصالحين والأخبار ، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء ، وتطلبه القضاة والفقهاء وتحبه العامة والرؤساء [٣] .

ويقول ابن حوقل فى مقدمة "صورة الأرض" : "وكان مما حضنى على تأليفه وحثنى على تصنيفه وجذبنى إلى رسمه أننى لم أزل فى حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك ، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق ، وتباينهم فى المذاهب والطرائق ... وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة المصفوفة ، فلم اقرأ فى المسالك كتاباً مقنعاً ، وما رأيت فيها رسماً متبعاً ، فدعانى ذلك إلى تأليف هذا الكتاب"[٤].

وساعد اتساع الدولة الإسلامية واحتكاكها بالشعوب والثقافات على وصول أراء الهنود والإيرانيين فى الفلك والجغرافيا إلى المسالكيين والجغرافيين من العرب ، فقد ترجم المسلمون كتابى السادهانتا "السند هند" و"أركاند" اللذين ألفهما براهما جوبتا حوالى ١٥٤هـ /٧٧١م ، وقام على ترجمته نفر من الهنود ورواد الفلك والجغرافيا المسلمين مثل إبراهيم بن حبيب الفزارى ويعقوب بن طارق وغيرهما ، وعن الهنود أخذ العرب المسلمون القول بالخط الذى يقسم القبة السماوية ويمر بموقع "أرين" أو العرين . ثم قسموا دائرة القبة بعد ذلك إلى ٣٦٠قسماً سمى كل قسم منها درجة ويمر بكل منها خط من خطوط الطول . وفى وقت لاحق

---

[3] – شمس الدين ابو عبد الله المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، بيروت ، مكتبة خياط ، ١٩٠٦ ، تحقيق / دى خويه ، الطبعة الثانية ، ص ١-٢ .

[4] – للاستزادة أنظر : ابن حوقل ، أبو القاسم محمد النصيبى ، صورة الأرض ، تحقيق / ج . هـ . كرامرز ، لايدن ، الجزء الأول ، ص ٣ .

أخذ المسلمون العرب عن الإغريق من أمثال كلاوديوس وبطليموس السكندرى وترجموا لهم الكتب مثل كتاب المجسطى(٥) .

كما كان لاتساع العالم الإسلامى وتعدد فتوحاته كثرة الدروب والمسالك فكانت الرحلة التى تعد أهم جوانب الجغرافيا الإسلامية ، وقد سلك هذا الطريق الجغرافيون المسلمون بعد أن تأثر الكثير منهم بالأفكار اليونانية ، وظهر ما يعرف بالمسالكيين الجغرافيين ، إذ تعتمد أفكارهم واتجاهاتهم

---

5 – المجسطي : اشهر كتاب فى العصور الوسطى على الاطلاق اقترن اسمه بأسم مؤلفه كلوديوس بطليموس الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى . وصفه القفطي بقوله : وما اعلم أحدا بعده بطليموس تعرض لتاليف مثل كتابه المعروف بالمجسطي ولا تعاطى معارضته بل تناوله بعضهم بالشرح والتبيين. وقال أيضا:ولا يعرف كتاب ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط باجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب أحداها كتاب المجسطي هذا فى علم هيئة الفلك وحركات النجوم. وكان الكتاب مرجعا فلكيا عاما فى العالم العربى والإسلامى والأوروبى حتى عصر النهضة وقد اشبعوه ترجمات وتفسيرات وتعليقات وشروحا ونقودا ونقل الى اللغة العربية فى العصر العباسي أكثر من مرة. يحتوى هذا الكتاب على ثلاثة عشرة مقالة :محورها البرهان على مركزية الارض وثبوتها فى وسط الكون ودوران الأجرام حولها ويتحدث عن الكون ودوران الاجرام حولها ويتحدث عن الافلاك وميل فلك البروج وتعيين أوقات نزول الشمس فى نقطتى الاعتدال ونقطتى الإنقلاب وتعيين مقدار السنة الشمسية وحركات القمر والشمس وإجتماعهما وإستقبلاتهما وكسوفاتهما. ويتحدث أيضا عن الكواكب الثابتة (النجوم)ومواضعها فى الطول والعرض وفى حركات الكواكب السيارة (المتحيرة)وهناك موضوعات اخرى. انتهى أمر الكتاب بظهور نظرية مركزية الشمس التى فجرها كوبر نيكوس فى القرن السادس عشر. وصل الكتاب فى لغته الاصلية وفى عدة ترجمات عربية ومن الكتب المحررة عن المجسطي كتاب (تحرير المجسطي) لنصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ هجرية وهو فى الحقيقة إعادة كتابة المجسطي باللغة العربية ومنه نسخ خطية عديدة فى مكتبات العالم. عن : عبد الأمير مؤمن ، قاموس دار العلم الفلكي ، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين ، ٢٠٠٦.

على الرحلة والمشاهدة وسؤال أهل البلاد وتحقيق مايدلون به من معلومات ومقارنات بغيرها ودراسة الكتب السابقة ومراجعتها [٦].

ويعتبر من رواد هذا الفكر الجغرافى القائم على الرحلة والمشاهدة هو : احمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ، المعروف باليعقوبى "توفى بعد ٢٧٨هـ / ٨٩١م" وهو الواضع أول تاريخ للعالم عند المسلمين ، قد بين فى فاتحة كتاب "البلدان" فقال : "إنى عنيت فى عنفوان شبابى وعند احتيال سنى وحدة ذهنى "بعلم أخبار البلدان" والمسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأنى سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ودام تغربى ، فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومقره ، وإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده وبلدته ما هى وزرعه ما هو ، وساكنيه من هم : عرب أم عجم ؟ ... شرب أهله حتى اسأل عن لباسهم ... وديانتهم ومقالاتهم والغالبين عليه والمترأسين فيه ... وما مسافة ذلك البلد ، وما يقرب منه من البلدان ... ثم اثبت كل ما يخبرنى به من ما أثق بصدقه ، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالم من الناس فى الموسم ، وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب . وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم ، وذكرت من فتح بلداً بلداً ، وجند مصراً مصراً من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراجه وما يرتفع من أماله ، فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتاب دهراً طويلاً ، وأضيف

---

[6] – حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ ، ص ٧–٨ .

كل خبر إلى بلده ، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندى معرفته ..." [٧] .

وتعددت الرحلة عند المسلمين ؛ إذ فيهم الرسول الذى ترسله الدولة إلى ناحية من النواحى للكشف عن مسألة علمية مثل "سلاَّم" الذى أرسله الخليفة الواثق عام "٢٢٧هـ / ٨٤٢م – ٢٣٢هـ / ٨٤٧م" ليستطلع أمر سد يأجوج ومأجوج ، وفيهم صاحب البريد الذى يتولى نقل مراسلات الدولة ورسلها كأبى الفرج قدامة بن جعفر "المتوفى بعد سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م" ، فقد كتب موسوعة شاملة لكل ما يحتاج إليه كتاب الدولة من المعارف وأسماه "كتاب صناعة الكتابة" وفيهم المغامر فى رحلته كالمقدسى ، وفيهم السفير الذى يندبه الخليفة للسفارة إلى بلد غريب مثل احمد بن فضلان ، الذى أرسل إلى ملك البلغار فى حوض الفولجا ، وفيهم التاجر الذى قطع آلاف الأميال فى برار وقفار ومخاطر ثم يسجل ذكرياته ومشاهداته ، مثل سليمان التاجر "نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى" وقد وصف فى كتابه "سلسلة التواريخ" الرحلة بالبر إلى الصين والهند عن طريق فارس[٨] ، وفيهم الرحالة الملاحين أمثال احمد بن ماجد وسليمان المهرى الذين تركوا كتاباتهم عن الملاحة وعلوم البحار .

ووسط هذه الظروف التى شهدت عنفوان الدولة الإسلامية ازدهر علم الجغرافيا كسائر العلوم الأخرى كعلم فن الخرائط التى أبدع فيها الجغرافيون المسلمون وتجلى هذا الفن فى خريطة الإدريسى كأول

---

[7] – للاستزادة أنظر : احمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ، كتاب البلدان ، تحقيق / ميخائيل يانوس دي خويه ، ليدن ، ١٨٦٠ ، ص ص ٢–٣ .

[8] – حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٨–١١ .

خريطة حقيقية لصورة الأرض والتى جسدها فى هيئة كرة لتوحى للغرب بعد ذلك بكروية الأرض ، والتى كانت سبباً مباشراً فى حركة الكشوف الجغرافية ، التى أسفرت عن اكتشاف الأمريكتين وباقى العالم الجديد ومن ثم باقى أجزاء العالم قاطبة ، وساعد فى هذه الحركة التاريخية فن الملاحة الإسلامية التى وفرت الأدوات والأسفار المعينة على ذلك ، كما ترك المسلمون من الجغرافيين من أخبار الرحلات والمسالك ما وطد فيما بعد حركة الكشوف وتوكيدها فى كافة العالمين القديم والجديد معاً .

وجدير بالذكر أن الدولة الإسلامية قد بلغت أوج عزها ومنعتها فى قرون قليلة عقب ظهور الإسلام وهو زمن قصير نسبياً ، تغلبت فيه على دول ذات تاريخ وحضارة وامتد ملك المسلمين خلاله من أطراف الصين شرقاً إلى مشارف المحيط الأطلسى غرباً وجابت رحالوهم وعلماؤهم أبواب أوروبا تقريباً.

وسوف يزول العجب إذا عرفنا أن مرد ذلك كان لوحدة الأمة وتمسكها بما نشأت عليه من تربية إسلامية سامية تلك التى تحض على الجهاد والاجتهاد والاتحاد ونبذ ألأحقاد وكبح هوى النفس والتضحية بكل نفيس وغال ، لرفع شأن كلمة الحق والدين والشرف ، وحين دبت الفرقة بين المسلمين تقطع ملكهم إلى دويلات وصاروا لقمة سائغة لأعدائهم . وصدق الله تعالى حيث قال : {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [9] . وفى آية أخرى قال تعالى : {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}[10].

---

9 – سورة الأنبياء: ٩٢ .

10 – سورة المؤمنون : ٥٢ .

وازدهرت الرحلة فى الإسلام بصورة واسعة وذلك للأسباب الآتية :

١- المساحة الشاسعة للدولة الإسلامية وعدم القدرة على تحقيق وحدة سياسة واحدة ، والتى امتدت حتى منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ولكن روابط الدين واللغة والثقافة ظلت تجمع بين سكان الدولة الإسلامية ، فكانوا يشعرون بأنهم أبناء إمبراطورية إسلامية بعيدة الأطراف ، وقد كانت تلك الروابط قوية فى العصور الوسطى ، ولم تكن القوميات الإقليمية قد عظم شأنها بعد ، وكانت أنحاء هذا الملك الواسع الذى أسسه المسلمون تتطلب الدراسة والوصف ، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة ، وتسهيلاً لمهمة الولاة فسافر القوم لدراسة البلاد وطرقها وحاصلاتها وخراجها وما إلى ذلك ، مما لابد منه للتأليف فى علم تقويم البلدان ، وطبيعياً أن تكون الرحلات والأسفار من أول السبل لطلب العلم فى تلك العصور فقد كانت الكتب نادرة ، وكانت الدراسة العلمية تقوم مقام ما نصنعه اليوم من تتبع المراجع والمؤلفات التى تزدحم بها خزانات الكتب الخاصة والعامة . وفضلاً عن ذلك فقد تعددت مراكز الثقافة فى ديار المسلمين وكان رجال العلم يتناقلون فى طلبه من إقليم إلى آخر ، يدرسون على مشاهير الأساتذة ، ويلتقون بأعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين ، والأطباء والفلاسفة والرياضيين[١١].

وتأكيداً لدور الرحلة فى التراث الجغرافى للعرب والمسلمين . يؤكد عبد الله محمد احمد المقدسى ، أحد أقطاب التراث الجغرافى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أهمية رحلاته فى أنحاء العالم الإسلامى من

---

11 – محمد زكى مبارك ، ذكريات باريس ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٣١ ، ص ص ٦-٧ .

أجل المعاينة ، وجمع المادة العلمية التى سجلها فى كتابه الشهير (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) فيقول فى مقدمة كتابه : نحن لم نبق إقليماً إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وقد عرفناه ، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب ، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه ، والثانى ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وغيره . وما بقيت خزانة تلك إلا وقد لزمتها ، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم ولا مذكرو بلد وقد شهدتهم حتى لى ما ابتغيته فى هذا الباب [١٢] .

٢- كان الحج من أهم العوامل التى دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل ضامر إلى الرحلة والانتقال ، فالحج كان ولا يزال رحلة يتشوق إلى أدائها كافة الناس ، وليس علماؤهم أو فقهاؤهم فقط ، نتيجة ذلك اكتسبت رحلة الحج صفة تراثية شعبية ، كما أن العديد من الحكام والسلاطين قد أقاموا على الطريق الكثير من المنشآت لخدمة الحجاج ، وعهدوا إلى الجنود تأمين طريق الحج وحماية سالكيه ، كما ان الحجاج كانوا يتجمعون فى قوافل تبدأ صغيرة ثم تنمو كلما تقدم بها الطريق ، بما ينضم إليها من وفود ، حتى يصبح فى النهاية للعراق حجيجه ، وللشام حجيجه ، ولإفريقيا حجيجها ، وتسير القافلة فى ألفة ونظام وتعاطف شامل ، يحميها جنود الحكام ، ويرحب بها سكان المدن والقرى فى معظم

---

12 – شمس الدين أبو عبد الله المقدسى ، مرجع سبق ذكره ، المقدمة والجزء الأول .

الأحيان ، ويزداد الترحيب كلما زاد فى القافلة عـــدد العلمـــاء ورجـــال الدين[١٣] .

٣- كانت التجارة عاملاً هاماً يقتضى القيام بالرحلة والسفر البعيد ، ومع أن تجارة المسلمين فى العصر الذهبى للدولة الإسلامية كانت قد بلغـــت شأناً لم تبلغه أى أمة قبل عصر الاكتشافات الجغرافية الأوروبية الحديثة ، إلا أن الاجتهاد العربى كان قد أفلح من زمن بعيد فى اختراق حـــاجز المسافة ناحية الشرق ، وفى انتظام الرحلة العربية الإسلامية فى المحيط الهندى[١٤] ، ولعل من أشهر الرحلات البحرية التجارية فى المحيط الهندى التى تمت خلال النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى هى رحلة التـــاجر سليمان السيرافى . ومن التجار الرحالة الذين جاءوا فى عـــصر لاحـــق نذكر منهم مثلاً ياقوت الحموى ، الذى كانت رحلاته للتجارة أساساً ، إلا أن مؤلفه الجغرافى (معجم البلدان) قد اكتسب شهرة كبيرة .

٤- التكليف من قبل الحكام ، إذ كانت هناك رحلات تكليفية بمهام رسمية كالتى بعثها الواثق بالله إلى حصون جبال القوقاز عام ٢٢٧هـــ ، ويدخل فى باب التكليف بالرحلة للحاجة إلى المعلومات والبيانـــات للأغـــراض الاقتصادية أو الدينية أو العلمية ، مثل هذا النوع تقوم الدولة بتمويلهـــا . غير هذا النوع من الرحلات كانت الرحلة الإسلامية بصفة عامة جهـــداً ذاتياً واجتهاداً شخصياً خالصاً [١٥].

---

13 – محمد محمود الصياد ، رحلة ابن بطوطة ، مجلة تراث الإنسانية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، المجلد الثالث ، مقال ابن بطوطة .

14 – صلاح الدين الشامى ، الرحلة العربية فى المحيط الهندى ودورها فى خدمة المعرفة الجغرافية ، الكويت ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث عشر ، العدد الرابع ، ١٩٨٣ ، ص ص ١٠٠-١٠٦ .

15 – صلاح الدين الشامى ، الإسلام والفكر الجغرافى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ .

٥- التقدير البالغ للرحالة فى كافة أمصار العالم الإسلامى ، إذ أن الرحالة المسلمين قد ركزوا أسفارهم داخل نطاق العالم الإسلامى واسع الأرجاء ، والممتد من المغرب العربى والأندلس إلى أقصى الشرق والهند وحتى الصين وقد كانت الرحلة خارج هذا النطاق محدودة وغير واردة على نطاق واسع ، وقد سهل الاتصال البرى الانتقال فى ربوع البلاد شرقاً وغرباً ، علاوة على توفير الكثير من التسهيلات لإيواء المسافرين جنباً إلى جنب ، وإلى ماحظى به الرحالة أيضاً من كرم وضيافة العلماء والحكام الوافدين إليهم ، ولولا ذلك لربما تعزر على الرحالة أبن بطوطة مثلاً أن يقطع آلاف الأميال متنقلاً فى ربوع البلاد مقيماً سنوات فى بعضها أو زائراً للبعض الآخر لمدة قصيرة . فقطع ابن بطوطة هذه المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ، ووجد فى كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم له الطعام ، لا على سبيل التكرم والتفضل ، بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة ، وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة : ذلك هو نظام الزوايا والمدارس والرُبط (جمع رباط) وهى دور ضيافة ينشئها رجال الطرق الصوفية أو بعض أهل الخير أو كبراء أهل الدولة من مالهم الخاص ، وقد تنشئها الجماعة نفسها ، وتتولى أمرها ورعاية النازلين بها من أموال تجمع لهذا الغرض [١٦] .

---

16 - ابن بطوطة (أبو عبد الله) : رحلة ابن بطوطة ، تقديم / كرم البستانى ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٠.

العوامل التى جعلت مكة فى بؤرة الفكر للرحالين :

كانت مكة دائماً فى فكر الرحالين والجغرافيين المسلمين والعرب بل وغير المسلمين ، وكانت الرحلة إليها مطلباً ومراداً على طول الدوام ، وقد ساعد على ذلك عدة عوامل وتنحصر أهم هذه العوامل فى الآتى :

أ- اختصاص مكة المكرمة بقدسية ربانية لا تتوفر لغيرها فى أى بقعة من بقاع الأرض :

فقد كان العرب فى مختلف عصورهم قبل الإسلام يقدسون مكة ، حيث بيت الله الحرام ، فيقومون بتأدية العبادات الدينية الممعنة فى القدم على صورة تناسب فطرتهم وتتمشى فى ذات الوقت مع جاهليتهم [١١] . وذلك كما يلى :

* كانت في شبه جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام عدد من المدن المستقلة التي كانت في كل منها تنظيمات خاصة ومن أشهر هذه المدن مكة ، ومكة لها اهمية كبيرة في تاريخ العرب والإسلام ، إذ أنها كانت من اكبر المراكز الدينية في الجزيرة يؤمها عدد كبير من العرب من مختلف ارجاء الجزيرة للحج وزيارة الكعبة كما كانت مركزاً تجارياً كبيراً وقد أسهم أهلها في التجارة وهذا مما ساعد أهلها على الاطلاع على أحوال البلاد الاخرى ووسع أفق نظرهم كما أدى الى ظهور مؤسسات أدارية فيها.

* تدعمت أهمية مكة بفضل وجود الكعبة فيها وهي بيت الله الحرام الذي ورد ذكره في عدة ايات قرآنية فقال تعالى (أن اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه ايات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان امناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً)[١٧].

---

17 – سورة آل عمران : ٩٦_٩٧ .

وتبين من آيات القرآن ان ابراهيم الخليل هو اول من اتخذ مقامه في مكة وهو الذي رفع قواعد البيت فصار ما حوله بلداً امناً ومركز يحج أليه الناس ، والواقع أن أعداد من العرب كانت سنوياً ترحل الى مكة للحج وزيارة بيت الله الحرام وبالنظر لمكانة الكعبة وأهميتها فقد عنى بها أهل مكة وأعاد بناءها قبيل البعثة النبوية ، وكانوا يشرفون على عمارة البيت كما عنى اهل مكة بأمر الحج فاعتبروا الاشهر التي يتم فيها الحج مقدسة ولا يجوز القتال فيها وذلك لكي يؤمّنوا مجيء الحجاج كما إنهم كانوا يوفرون الماء والطعام للحجاج ويشترطون على الحجاج ان يرتدوا ألبسة خاصة عند الحج وكان الحجاج يطوفون الكعبة ويقفون عند عرفة ويضحون عند منى ثم يحتفلون بعد إتمام الحج بحلق رؤوسهم وأخذ زينتهم.

* اهتم المكيّون بالتجارة وساهموا فيها وشجعهم على ذلك قدسية مكة وأقبال الناس عليها للحج وكذلك التداخل بين اليمن وبلاد الشام وفلسطين وكانت منذ أقدم الازمنة من المحطات الكبرى للقوافل وقد أزدادت اهمية مكة منذ القرن الخامس الميلادي عندما نشبت حروب حامية بين الساسانين والروم فتعرقل نقل سلع بلاد الصين والهند عن طريق العراق وأخذ الروم يجلبون تلك السلع عن طريق اليمن حيث كانت تنقل منها بداً الى الشمال وتمر بمكة ومنها الى فلسطين والشام ولم يكتف اهل مكة بأن تكون مدينتهم محطة للقوافل بل كانوا يقومون بأنفسهم بالتجارة وقد ساهم معظم أهل مكة بالتجارة وشارك الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوافلها بتجارة أم المؤمنين (خديجة) ولم تكن تجارتهم محصورة بمنطقة واحدة بل امتدت الى عدة اقطار وبخاصة العراق والحبشة واليمن وبلاد الشام فالعراق كانت تجارتهم بصورة خاصة مع الحيرة التي ذهب اليها

عدد غير قليل من اهل مكة للتجارة كما كان المناذرة وهم ملوك الحيرة يرسلون قوافلهم التجارية لتحمل لهم المسك والمنسوجات الى الاسواق الرئيسية التي كانت في مكة وفي عكاظ وذي المجاز وهم سوقان قريبان من مكة كما مارسوا القوافل التجارية سكان ضاحية كربلاء الساكنين في قصر الاخيضر والقصور المحيطة به.

* تروي المصادر العربية ان السيادة في مكة كانت قديماً لقبيلة جدهم ثم انتزعها منهم خزاعة ثم انتزع قصي السيادة في مكة من خزاعة وجعلها لقريش وقد قسم قصي قريش الى عشائر و أوطنَ هذه العشائر في اطراف مكة وهي تسمى (قريش الظواهر) وأوطن بعضها الاخر في داخل مكة وهي التي تسمى (قريش البطاح) وأهمُّ بطون قريش البطاح هم: بنو عبد مناف – بنو عبد الدار – بنو زهرة – بنو تميم – بنو سهم – بنو مخزوم

وكانت هذه البطون تتولى ادارة مكة وتساهم في النشاط التجاري والاقتصادي وقد استوطن في مكة ايضاً بعض العرب من غير قريش لأغراض تجارية أو دينية وأصبح بعضهم حلفاء لأهل مكة كما كان فيها عدد من العبيد([18]).

لقد ادى اجتماع الناس في مكة واستقرارهم فيها الى ايجاد تنظيمات سياسية لتنسيق ادارتها وتأمين مصالح أهلها فمثل اهل مكة يشتركون جميعاً في مناقشة القضاية الرئيسية التي تهم البلد كما كان لمكة سيد

---

[18] – للاستزادة فى المعرفة الحج عند العرب قبل الإسلام ، أنظر : الزرقى ، أخبار مكة ، الجزء الأول ، ص ١٧٩ وما بعدها .

يشرف على سيد الامور العامة ولكل عشيرة ينظر في امورهـا شـيخاً وهناك نادي أو مجلس تجري فيه المناقشات والمسامرات.

دار الندوة: كان في مكة دار الندوة يجتمع فيها الملأ وهـم اولاً قـصي وممثلون عن كل عشيرة ويجتمعون لبحث ومناقشة الامور المهمة كعقـد المعاهدات وتجهيز القوافل والاعداد للحروب والاشتراك فيها غير إنه لم تكن في مكة سلطة عليها لتنفيذ القرارات وكان يترك لكل فـرد حريـة تطبيقها.

تنظيم الحج: مكة مركز دينياً يحج اليه عدد كبير من الناس فقد طلب ذلك تنظيم الحج وشأن فيها عدة وظائف لتنظيم امور الحج وادارة مكة وأهـم هذه الوظائف هي:

١- الاجازة والافاضة القائم فيها مسؤول عن اجازة الحجيج في عرفـة وأفاضتهم في منى أي تعيين مواعيدها.

٢- النسيء وهو تقرير أشهر الحرم وتنظيم مواعيد الحج.

الوظائف التي حددها قصي:١- الحجابة والقائم بها يمتلك مفاتيحَ الكعبة ويأذن للناس في دخولها.

٢- عمارة المسجد الحرام

٣- السقاية وهي توفير الماء للحجاج

٤- الرفادة وهي توفير الطعام للحجاج.

* كان النظام القبلي يسود في انحاء جزيرة العرب وإن اغلبية سكانها من القبائل تسيطر كل قبيلة منها على منطقة محددة.

نظام القبيلة: تتكون القبيلة من عدد من الافراد ويجمعهم نسب واحد ويعيشون سوية في موطنهم وترحا لهم ويشتركون في واجب القتال وفي دفع الدية وتختلف القبائل في عدد افرادها.

التكوين الاجتماعي للقبيلة: تتكون القبيلة من العرب الصلبية والحلفاء والعبيد فأما الصلبية فهم الافراد العرب الذين ينحدرون من الجد الاعلى للقبيلة مثل بني اسد ومطير وطي وشمر وكلب وبكر وتغلب وشيبان وغزة وعتيبة وحرب وربيعة وغيرها وكل فرد منهم يعتبر بشخصية وفرديته ومكانته في القبيلة وأما الحلفاء فهم افراد من القبائل اخرى يلجأون الى القبيلة ويصنعون انفسهم تحت تصرفها أما العبيد فهم مصدر للشراء أو أولاد أب عبد أو الدني أو القمار ولكن اغلبهم من أسرى الحروب([19]).

وكان الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة ، ركن الإسلام الخامس ، الذى يعد فى ذاته من أقدم العبادات السماوية والتى عرفتها البشرية بعد أن دعا إليها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام فجاء فى قوله تعالى : {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} [٢٠] ، وقد أسس إبراهيم الخليل عليه السلام الكعبة لتكون أول بيت وضع لعبادة الله تعالى فى الأرض [٢١] . بل وأسس عليه السلام أول بيت مبارك لغاية مقصودة ، وهى الترحال لمكة وبيت الله الحرام فقال تعالى : {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [٢٢] .

---

19 – شبكة النبأ المعلوماتية ، مكّة قبل الاسلام.. رؤية تاريخية عامة ، تحقيق: حسين كاظم العرادي ، نقلاً عن : – الاصفهاني: حمزة بن الحسن الاصفهاني– تاريخ سني ملوك الارض والانبياء + الموسوعة العربية التاريخية– الجزء الرابع الجزء الرابع الشيخ مهنا ربظ المطيري.

20 – آل عمران : ٩٦ .

21 – تفسير الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، الجزء السابع ، ص ١٩ – ٢٦ .

22 – سورة الحج: ٢٧ .

وعندما جاء الإسلام وفرض شعيرة الحج على معتنقيه دخلت تلك الشعيرة الدينية التاريخ من أوسع أبوابه ، بل أصبحت عنصراً عظيم الأهمية من عناصر التاريخ الإسلامى . فشدت لها الرحال فقطعت لذلك المسافات الشاسعة المقفرة لتأدية تلك الفريضة الدينية تيمناً بسنن الأنبياء[٢٣].

ب- فاعلية مكة فى الربط بين عوالمها المحيطة :

ظهرت مكة كأبرز المدن بالحجاز بل وشبه الجزيرة العربية قاطبة حتى قبل الإسلام وعززت بعد ذلك بالإسلام وتميزت ببعض مظاهر الحضارة نتيجة أوضاعها الاقتصادية والسياسية ، حيث بيت الله الحرام ، وإشراف قبيلة قريش على الكعبة وحركة التجارة من خلال رحلتى الشتاء والصيف بين الشام واليمن [٢٤] . لتكون مكة على الدوام مقصداً للرحالة والتجارة على طول الدوام . ولتلعب مكة وطرقها دور الربط بين أقاليم العالم المحيطة بها . وقد عزز ذلك بآيات القرآن الكريم فقال تعالى : {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * } [٢٥] . وروى ابن بحيح عن مجاهد قال : لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف مِنّة منه على قريش . وقال الهروى وغيره : وكان أصحاب الإيلاف أربعة أخوة : هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل بنو عبد مناف . فأما هاشم ؛ فإنه كان يؤلف ملك الشام ؛ أى أخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به فى تجارته إلى الشام

---

23 ١٥- احمد عمر الزيلعى ، مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١ – ٤٨٧هـ ، الرياض ، عمارة شئون المكتبات – جامعة الرياض ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ٨١ .

24 – محمد سالم إبراهيم مقلد ، الوطن العربى دراسة فى الواقع والمشكلات ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ٢٠٠٢ ، ص ٨٤ .

25 – سورة قريش : (١ : ٣) .

. وأخوه عبد شمس كان يؤلف على الحبشة . والمطلب إلى اليمن . ونوفل إلى فارس . فكان هؤلاء الأخوة يسمون المجيرين . فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الأخوة ، فلا يتعرض لهم . قال الأزهرى : الإيلاف : شبه الإجارة بالخفارة يقال : آلف يؤلف : إذا أجار الحمائل بالخفارة . والحمائل : جمع حمولة قال : والتأويل : أن قريش كانوا سكان الحرم ، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع ، وكانوا يميرون فى الشتاء والصيف آمنين ، والناس يتخطفون من حولهم ، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله . فلا يتعرض الناس لهم [٢٦] .

وقد ساعد فى الارتحال لمكة المكرمة ازدهار تجارتها المرافقة للحجيج وطلاب العلم طوال تاريخها عبر العصور الإسلامية . وقد ساعد على ذلك . موقع مكة الجغرافى الفريد على تخوم جبال السراة ، وعلى أطراف تهامة جعلها فى بيئة جغرافية مميزة ، وإمكانية توفر ماء الشرب فيها ، ولاسيما بعض المشاريع التى أجريت لها خلال العصور الإسلامية المختلفة – ونشاط سوقها التجارى ، وتوفر الميرة فيه جعلها ملتقى طرق القوافل البرية التى تجوب شبه الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً وشرقاً ، حيث يتوفر إلى جانب الماء الصالح ما تحتاجه القوافل من المؤن والأرزاق اللازمة لمواصلة الرحلة إلى الجهات التى تقصدها ، فضلاً عن تبادل تلك المتاجر مع تجارة مكة [٢٧] .

كما ساعد على الارتحال لمكة المكرمة قربها من البحر الأحمر ، وامتلاكها بعض الموانى التجارية على شاطئه الشرقى كجدة والسرين ، كما فى الشكل (١) .. أما عن جدة ، فقد كانت واجهة مكة البحرية ،

---

26 – تفسير القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء ١٩ – ٢٠ ، الآية .

27 – حاطوم ، يقظة القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٨ .

وعتبتها على البحر ، وكانت المراكب تأمها من مصر واليمن وغيرها من البقاع ، فما تكاد تنتهى إلى جدة حتى تسير منها المتاجر مثل عمان واليمامة وعدن وصنعاء ودمشق والبصرة وبغداد والفسطاط والقلزم وعيذاب وغيرها [٢٨] . أما عن ميناء السرين ، فقد وصفها المقدسى بأنها معدن الحبوب والخيرات والتمور .. والعسل الكثير . وقد أسهمت السرين كجدة فى تجارة مكة فبالإضافة إلى خيرات السروات التى كانت تلقى طريقها عبر هذا الميناء إلى جدة ثم مكة ، كانت تجلب إلى السرين مختلف الحبوب من عثر وجودة ، وغيرها ، وكانت بالمدينة سوق نشط يقوم على تجارة واسعة محلية وخارجية ، وكان لها تجارة واسعة خاصة مع الحبشة ، وقد أسهم ميناء جدة إلى جانب السرين فى تمكين مكة من تجارة البر والبحر معاً مع الراحلين إليها والخارجين منها [٢٩].

ج- حضور مكة المستمر فى خاطر الجغرافيين والرحالين العرب والمسلمين :

كانت مكة المكرمة دائماً فى فكر الرحالين والجغرافيين على الدوام ويتضح ذلك فى إنتاجهم الفكرى من خلال كتاباتهم وخرائطهم التى أخرجوها ، ويتمثل ذلك بوضع الجنوب بأعلى الخريطة عكس ما نراه اليوم من خرائط ، وهذه ظاهرة حاول العديد من الباحثين تفسيرها ، ففسرها البعض بان لهذا الأمر مغذى دينياً ، ذلك أن جميع العواصم الإسلامية فى ذلك الوقت تقريباً

---

28 – Geyd . W . Histoive Du Commerce Lavent Au Moyen Age . Leipzig , 1925 , I . pp . 24 – 26 .

29 – احمد عمر الزيلعى / مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٦ .

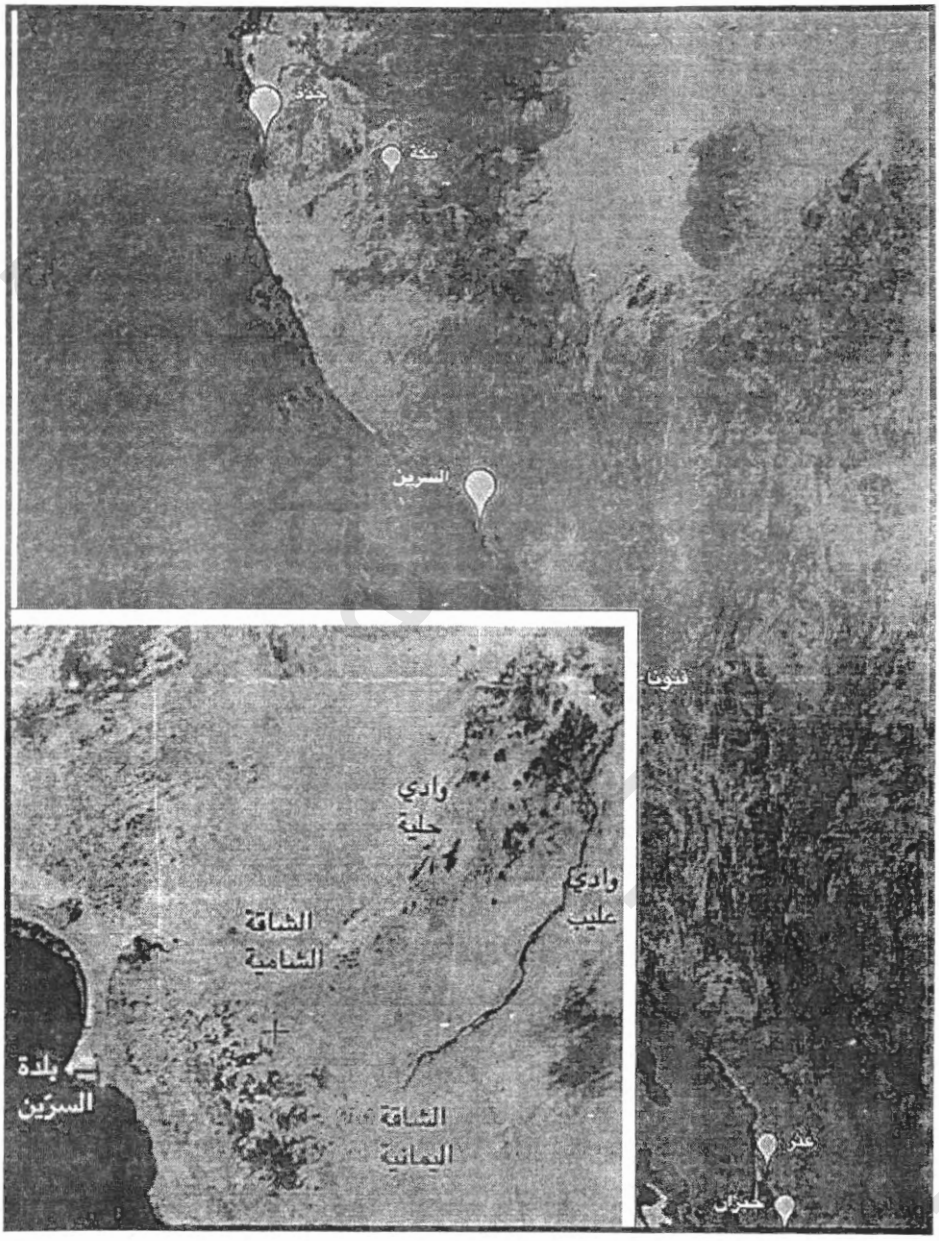

شكل (١) ميناء السرين القديم

كانت تقع شمال مكة المكرمة ، مثل المدينة المنورة ، والكوفة ، ودمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، ومعنى ذلك أن الخليفة كان يتجه فى صلاته صوب الجنوب ، أى صوب الكعبة ، لذلك كان لابد أن يوضع الاتجاه الجنوبى فى اعلى الخريطة ، لأن الاتجاه الجنوبى يعنى الاتجاه صوب القبلة ، وهى اشرف بقعة يتجه إليها المسلمون ، كما كان متبعاً من ذى قبل فى حالة الخرائط الرومانية فى العصر المسيحى ، حيث كان الشرق "Orient" فى أعلى الخريطة لأن الشرق بيت المقدس ، وما زالت كلمة "Orientation" التى تعنى توجيه الخرائط تشير إلى الأصل التى اشتقت منه وهو "Orient " يوم كان اتجاه الشرق فى أعلى الخريطة ، حيث الأماكن المقدسة المسيحية [٣٠] .

كما أبدع الرحالة فى رسم الخرائط الدينية التى تتوسطها مكة حيث الكعبة المشرفة ، والتى توضح اتجاه القبلة وطرق الحج ، وقد تجلت فى ذلك خريطة الصفاقصى كما هو موضح فى الشكل (٢) .

د- نظرة الإسلام المشجعة على الرحلة :

ينظر الإسلام إلى نشاط الرحلات والدعوة إليها نظرة تحفيز وتشجيع وتنشيط ، ويذكر صلاح الدين الشامى صاحب كتاب (الرحلة عين الجغرافيا المبصرة فى الميدان) أنه : لأن الإسلام دين حضارى متنور ، ودولة متفتحة ، ولأن التحضر أو التفتح يكفل التقدم ويؤمن حركة الحياة ويدعمها ويبشر بحياة أفضل ، فلقد أمسك المسلمون بزمام الرحلة وتحمسوا لها ، بل والتهب نشاط الرحلة الإسلامية فى إطار اهتمام رشيد مطمئن وتحولات تبشر بحياة أفضل وحصاد وفير.

---

30 -محمد محمود محمدين ، التراث الجغرافى الإسلامى ، الرياض ، دال العلوم ، ١٩٩٣ ، ص ٢٢٨ .

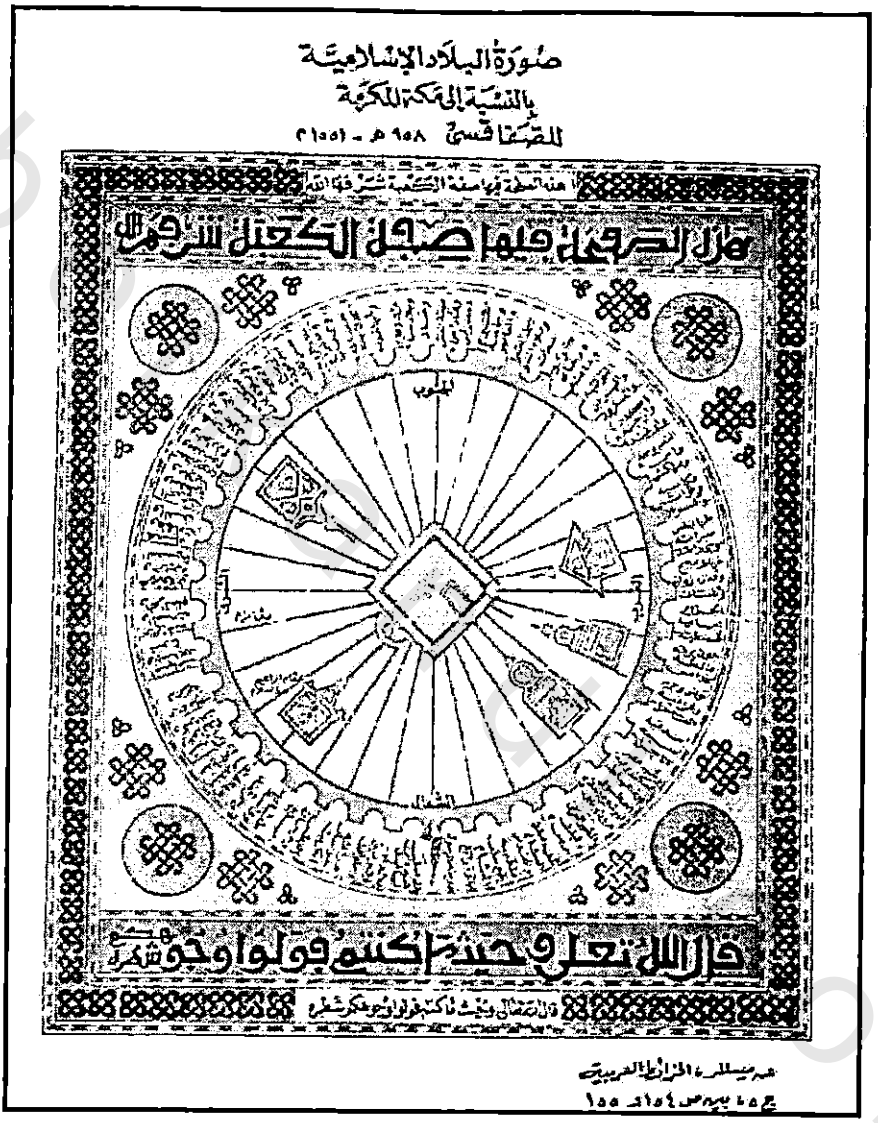
صورة البلاد الإسلامية
بالنسبة إلى مكة المكرمة
المصنفا قسمي ٩٥٨ هـ - ١٥٥١ م
هذه الخطة فيها صفة الكعبة شرفها الله
فول وجهك شطره
فول وجهك شطره

شكل (٢)

وهكذا نالت الرحلة الإسلامية حقها الكامل من الاهتمام والأمان من ناحية ، واستحقاقها الفعال من قوة الدفع والحوافز على الطريق فى البر والبحر من ناحية أخرى ، ووصل نفر نشيط من المسلمين أصحاب الخبرة فى الرحلة أداء دورهم الوظيفى والخروج فى الرحلة لإنجاز المهام (المهارات) المنوطة بهم فى كل رحلة فى البر وفى البحر على حد سواء[٣١].

ويقول احد شيوخ الأزهر السابقين ، محمد الخضر حسين – التونسى الأصل – إن الإسلام لم يدع وسيلة من وسائل الرقى إلا نبه عليها ، وندب إلى العمل بها ، وهكذا شأنه فى الرحلة ، فقد دعا إليها رامياً إلى أغراض سامية منها : طلب العلم والتفقه فى الدين ، والمعرفة بأحوال الأمم الحاضرة[٣٢] .

وفى أسترشادة لأهمية الرحلة ، ودعوة الإسلام إليها بدأ الرحالة محمد السنوسى[٣٣] كتابه (الرحلة الحجازية) بما سماه (نموذج السفر) ، وأورد

---

31 – صلاح الدين الشامى ، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة ، فى الدراسة الميدانية ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٢ ، ص ٩١ .

32 – محمد الخضر حسين ، الرحلات (جمعه وحققه / على الرضا التونسى) ، بيروت ، المطبعة التعاونية ، ١٩٦٧ ، ص ٨ .

33 – محمد السنوسي (١٢٦٧ – ١٣١٨ هـ = ١٨٥٠ – ١٩٠٠ م) هو : محمد بن عثمان بن محمد السنوسي، أبو عبد الله ، أديب، له اشتغال بالتاريخ، ونظم.مولده ووفاته بتونس. كان يحرر جريدة (الرائد التونسي) الرسمية.وعين حاكما في القسم الجنائي بمحكمة الوزارة بتونس، ومدرسا بالجامع الباشي فيها.له (مجمع الدواوين التونسية) جمع به دواوين الشعراء التونسيين المتأخرين، في عدة مجلدات، طبع أحدها وهو (ديوان محمود قبادو) و) مسامرة الظريف بحسن التعريف) وهو تاريخ لقضاة تونس وأئمة جامعها والمفتين، و (مطلع الدراري – ط) شرح به القانون العقاري، و (الرحلة الحجازية) في المكتبة الخلدونية بتونس (العدد ٣٣٤٦) و (الاستطلاعات الباريسية) رحلة إلى باريس. وزار بيروت فاجتمع بمؤلفي (دائرة

فيه من الآيات القرآنية الكريمة ما ينبه إلى فضيلة السفر والدعوة إليه . كتب يقول : لا يخفى أن الله جلت حكمته لم يجمع منافع الدنيا فى أرض واحدة ، بل فرق المنافع والجهات أحوج بعضها إلى بعض ، ولذلك كانت الأسفار مما تزيدنا علماً بقدرة الله وحكمته وتدعونا إلى شكر نعمته ، والمسافر يجمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب . وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تنبه على فضيلة السفر وتدعو إليها ، قال تعالى : {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } [٣٤] وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} [٣٥] وقال تعالى {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [٣٦] وقال تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [٣٧] وقال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [٣٨] وقال تعالى {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ

المعارف) البستانية، فطلبوا منه أن يكتب لهم تاريخ أمراء الدولة (الحسينية) بتونس، فأملاه، وأدرجوه بنصه. وهو والد (زين العابدين التونسي) صاحب كتاب (الأدب التونسي في القرن الرابع عشر).

34 – سورة الملك: ١٥ .

35 – سورة يس : ٤١ .

36 – سورة الإسراء:٧٠ .

37 – سورة العنكبوت:٢٠.

38 – سورة آل عمران:١٣٧.

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [٣٩] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة [٤٠] .

وقد عرفت البيئة العربية السفر ومارست الترحال فى شبه الجزيرة العربية والبلدان المتأخمة ، وقاموا برحلتى الشتاء إلى بلاد الشام والصيف إلى بلاد اليمن ، وأبحرت سفنهم قبيل مجيئ الإسلام فى مياه المحيط الهندى ، حيث اتجهوا شرقاً نحو المحيط الهندى وغرباً إلى جنوب إفريقيا ، كما أن رحلات العرب فى الجاهلية أدت إلى أن يعرفوا الطرق البحرية فى مناطق متعددة ، كما أنها نمت إلى ما نسميه اليوم بالتبادل التجارى للسلع ، وأدت إلى ظهور طبقة من الرأسماليين الذين كانوا ينمون أموالهم بهذه الرحلات [٤١] .

وتجدر الإشارة إلى أن الرحلات التكليفية كانت قد بدأت فى عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) ، إلا أنها كانت محدودة كرحلة تميم الدارى – وهو صحابى ولاه النبى (صلى الله عليه وسام) أرضاً قرب الخليل ، ورحلة عبادة بن الصامت التى قام بها بتكليف من أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) – قاصداً ملك الروم يدعوه للإسلام . ولم يترك أثراً لهاتين الرحلتين سوى بعض الأخبار عنهما فى كتب الأدب والتاريخ [٤٢] .

---

39 – سورة الروم: ٩.

40 – محمد السنوسى ، الرحلة الحجازية ، تحقيق /على الشنوفى ، الشرة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٦ ، ص ٤٥ .

41 – على محسن مال الله ، أدب الرحلات عند العرب فى المشرق : نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجرى ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ، ١٩٧٨ ، ص ١٢ .

42 – محمد محمود محمدين ، التراث الجغرافى الإسلامى ، دار الطباعة للعلوم والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٥-١٧ .

هـ- الاعتقاد عند الكثيرين من الرحالين الجغرافيين في مركزية مكة في الكون : اهتم علماء المسلمين بخطوط الطول نظراً لارتباطها بالتوقيت للصلاة ، وكانت نقطة الخلاف بينهم هى موقع خط الطول الرئيسى ، فقد اتفق البتانى وأبو الفدا مع بطليموس على أنه يمر بجزر كناريا "جزر الخالدات" بينما وضع جغرافيون آخرون مثل المسعودى هذا الخط بحيث يسير ما بين الساحل الشرقى لإفريقيا وجزيرة زنجبار على الساحل الشرقى الإفريقى والتى أطلقوا عليها اسم "قبة الأرض" .

والمثير فى هذا الأمر ، هو اختيار المسعودى ومشاركيه فى هذا الرأى خط الطول الرئيسى الذى يسير مع قبة الأرض هذا ، فهذا الخط يكاد يمر أيضاً بمكة المكرمة ، ألأمر الذى يجعل خط طول مكة المكرمة هو خط الطول الرئيسى للكرة الأرضية وليس خط جرينتش ، وهذا ما أثبتته الدراسات الحديثة لمجتهدين مخلصين ، ففى محاولة جادة لتحديد الاتجاهات الدقيقة إلى القبلة "أى إلى الكعبة المشرفة" من المدن الرئيسية فى العالم باستخدام الحواسب لوحظ تمركز مكة المكرمة فى قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات أى أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً ، وأن هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزاً لليابسة كما فى شكل رقم (٣ "أ") [٤٣] .

---

43 - حسين كمال الدين ، إسقاط الكرة ألرضية بالنسبة لمكة المكرمة ، مجلة البحوث الإسلامية ، العدد الثانى ، المجلد الأول ، الرياض ، ١٣٩٥ / ١٣٩٦هـ - ١٩٧٥/١٩٧٦م ، صفحات مختلفة .

وقد أضاف البحث العلمى أن الأماكن التى تشترك مع مكة المكرمة فى نفس خط الطول "٣٩,٨١٧ شرقاً" تقع جميعها فى هذا الإسقاط على خط مستقيم وهو خط الشمال الجنوب الجغرافى المار بها أى أن المدن

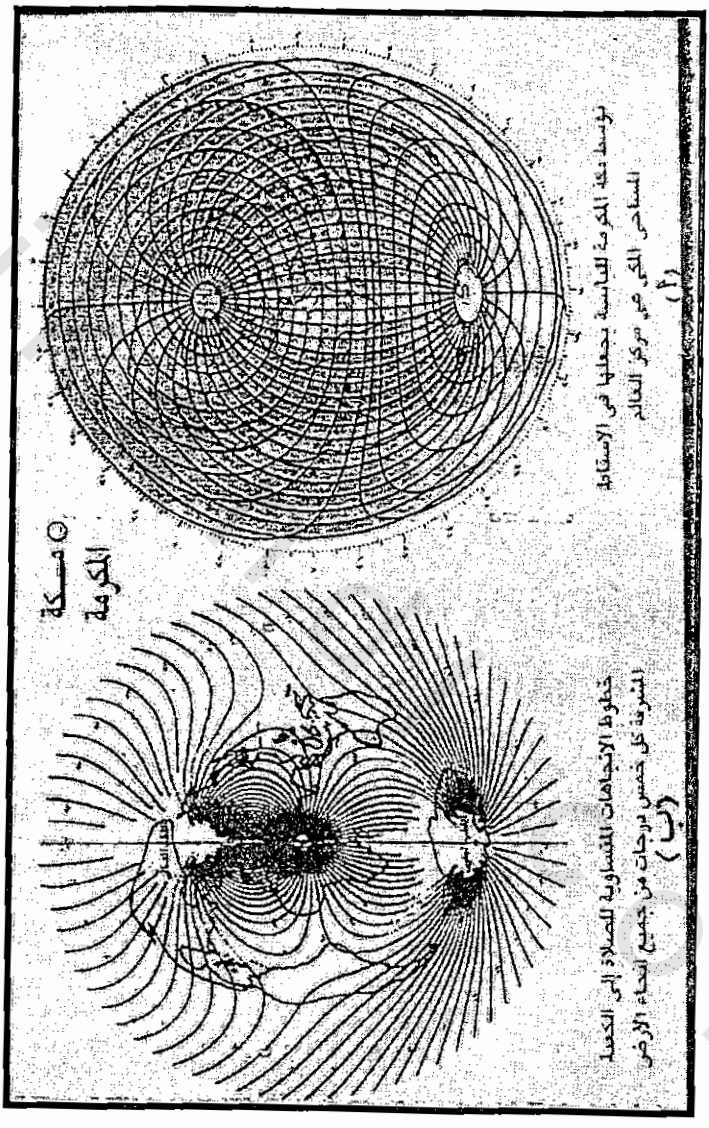

التى تشترك مع مدينة مكة المكرمة فى خط طول يكون اتجاه الصلاة فيها إلى الشمال أو الجنوب الجغرافى تماماً ، والمدن التى تتجه فى الصلاة إلى الجنوب الجغرافى تبدأ من القطب الشمالى للأرض إلى خط عرض مكة المكرمة "٢١,٤٣٧ شمالاً" وأما المدن التى تقع على خط العرض الممتد من جنوب مكة المكرمة إلى القطب الجنوبى فإن اتجاه القبلة فيها يكون ناحية الشمال الجغرافى تماماً وكذلك الحال على خط الطول المقابل لخط طول مكة المكرمة ، وهو خط الطول المرقم "١٤٠,١٨٣ غرباً" فإن المدن الواقعة عليه تصح الصلاة فيها نحو الشمال الجغرافى أو الجنوب الجغرافى تماماً حسب موقع دائرة عرض كل منها بالنسبة لدائرة عرض مكة المكرمة ، فالمدن الواقعة إلى الجنوب من دائرة العرض المقابلة لدائرة عرض أم القرى ، أى من دائرة عرض "٢١,٤٣٧ جنوباً" إلى

القطب الجنوبى تتجه فى صلاتها إلى الجنوب الجغرافى تماماً ، والمدن الواقعة شمالاً من دائرة العرض ذلك إلى القطب الشمالى تتجه فى صلاتها إلى الشمال الجغرافى تماماً . أما المدن الواقعة على خط الطول المقابل لمكة المكرمة تماماً وعلى دائرة عرضها تماماً فإن الصلاة تجوز فيها نحو أى من الشمال أو الجنوب الجغرافيين تماماً . كما تجوز فى كل الاتجاهات الأخرى شرقاً وغرباً ، وذلك لوقوع تلك المدينة على امتداد قطر الكرة الأرضية المار بمكة المكرمة كما فى الشكل (٣ ب) ومن هنا يكون خط طول مكة المكرمة خط الأساس للكرة الأرضية ، أى بالنسبة إلى مكة المكرمة لتماثل خطوط الطول حول خط طول تلك المدينة المقدسة تماثلاً مذهلاً ، بدلاً من خط جرينتش الذى فرضته الهيمنة البريطانية على العالم فى العقود ألأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى

، والذى من الخطأ اعتباره خط الأساس للكرة الأرضية ؛ لأن زاوية الانحراف المغناطيسى فى الجزر البريطانية كانت فى حدود ٨,٥ درجة إلى الغرب من الشمال ، وهذه القيمة تتناقص بمعدل نصف درجة تقريباً كل أربع سنوات إذا بقيت تلك المعدلات ثابتة ، ويظهر ذلك فى خصوصية خط طول مكة بانطباق الشمال المغناطيسى على الشمال الحقيقى [٤٤] .

44- نفس المرجع السابق ، والصفحات .

opeikandl.com